صورة ...

بقلم الدكتور طه حسين

لن أبيح لنفسى أن اتعمق الأحداث الطارئة فى مصر وبينى وبين الوطن بر شاسع وبحر عريض وانما أصور ما تأثرت به فى هذا المكان البعيد حين جعلت أنباء هذه الأحداث ترقى إلى من السهل أو يحملها إلى البرق والأثير. فقد كان هذا التأثر أول الأمر تأثر القلق والإشفاق حين ألقى إلى التليفون من باريس الأنباء الأولى لحركة الجيش، وما هى الا ساعات حتى استحال هذا القلق والاشفاق إلى شيء من الطمأنينة فيه ميل شديد إلى الاستطلاع والعلم بحقائق الأشياء فقد حمل إلى التليفون من روما أن قائد الجيش لم يتول الحكم ولم يصطنع العنف وإنما طلب أن تكون أمور الحكم إلى رجل ثقة يطمئن المصريون إليه على اختلاف ميولهم وأهوائهم . ولم يكد يبلغنى اسم هذا الرجل الذى أسندت إليه شئون الوزارة من الغد حتى أحسست الرضى وجعلت أحس شيئا من التفاؤل يمازجه شيء من الإشفاق أن تفلت الأمور من أيدى المشرفين عليها وأن تفسد بعد أن همت بالصلاح . وجعلت الأخبار يتلو بعضها بعضا بالبرق والتليفون من روما وباريس ومن طريق الصحف والراديو.

وما هى إلا أن تثوب إلى الثقة ويعود إلى الامل وأحس أن مصر قد وجدت نفسها ولم يخطئها التوفيق ولم تحد عن قصد السبيل وانما ملكت أمرها وضبطت نفسها ومضت فى طريقها إلى الإصلاح ثابتة رزينة لم تسرف على نفسها وعلى غيرها فى شيء.

ثم أصبح ذات يوم فاقرأ فى الصحف أن الكتاب قد بلغ أجله وأن سلطاناً قد انقضى عهده وأن سلطانا جديدا قد أخذ يستقبل الحياة . هل أستطيع أن أصور ما ثار فى نفسى من العواطف وما دار فى عقلى من الخواطر وما خفق به قلبى من الشعور. لقد ذكرت عهدا مضى كان رئيس الوزارة القائمة فيه ناهضا بأعباء الحكم حين زال سلطان وجعل سلطان جديد يستقبل الحياة . هنالك نهض على ماهر بالعبء كأحسن ما ينهض الرجل الثقة الجلد بالعبء الفادح الثقيل ، لم يخرج عن طوره ولم تخرج مصر عن طورها وإنما مضى الأمر فى طريق مستقيمة حتى أقر البرلمان ما أقر وأجريت

الانتخابات حرة كريمة هادئة مطمئنة وانتهت إلى نتائج لم ينكرها أحد من المصريين وإنما قبلها الناس جميعاً راضين بها مؤمنين لها وخرجت مصر من ذلك المأزق دون أن تلقى كيدا في ذلك العهد لم يكن الجيش فى حاجة إلى أن يتدخل فى أمر من الأمور فظل فى مكانه مؤديا لواجبه منصرفا إليه عن كل شيء . أما فى هذه المرة فالجيش هو الذى أثار هذه الأحداث، لم يثرها عن طمع ولا عن طموح ولا عن رغبة فى منفعة أو رهبة من مضرة وإنما أثارها لأن المدنيين كانوا قد وصلوا من العجز عن تقويم المعوج وإصلاح الفاسد إلى حيث لم يكن بدمن أن يقوم العسكريون مكانهم بما حيل بينهم وبين القيام به.

والله عز وجل يقول < ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون»

فقد كان الجيش هذه الأمة التى دعت إلى الخير وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وسارعت فى الخيرات وأيدت هذا كله بالقوة التى خلقت لتنصر الحق ولم تخلق لتنصر الباطل عليه . وقد أمرنا إذا رأينا منكرا أن نغيره بأيدينا فحيل بين المدنيين منا وبين تغيير المنكر بالأيدى وأمرنا إن لم نستطع أن نغير المنكر بأيدينا أن نغيره بألسنتنا فحيل بين الألسنة وبين القول وحيل بين الأقلام وبين الكتاب وأمرنا إن لم نستطع أن نغير المنكر بأيدينا ولا بألسنتنا أن نغيره بقلوبنا وقيل لنا أن هذا أضعف الإيمان وقد ألجئنا إلى ضعف الإيمان إلجاء واضطررنا إليه اضطرارا فجعلنا نغير المنكر بقلوبنا نستعين الله عليه ونرجو أن يقيض له من أولى البأس والقوة قوما لا يخافون فى الحق لومة لائم، يستطيعون أن يقولوا وأن يفعلوا وأن يعدوا وأن يوفوا . ولقد كنا ننكر بقلوبنا وننكر بألسنتنا حين يلقى بعضنا بعضا ثم لا نستطيع أن نتجاوز ذلك إلى الجهر بالدعوة إلى الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ولقد كنا نفكر فنحاسب أنفسنا على ما نفكر ونكتب فندير الجملة أو الكلمة فى رؤوسنا قبل أن نلقيها إلى القلم ليخطها على القرطاس وكنا نرسل المقالة إلى الصحيفة ونحن نقدر أنها لن تنشر

لأن الرقيب كان لها بالمرصاد فإذا نشرت منقوصة أو كاملة جعلنا ننتظر أعقابها ونسأل أنفسنا أتمضى بسلام أم تدفعنا إلى سجن من هذه السجون وإلى معتقل من هذه المعتقلات أو تفسد علينا بعض أمورنا الخاصة أو تحد من حريتنا فى الحركة والانتقال ، وأشهد لقد أحسست كأن ثقلا ثقيلا قد وضع عن عاتقى حين تحركت بى السفينة خارجة من مصر وأشهد لقد تنفست ملء رئتى حين أحسست أن يد السلطان قد قصرت دونى أثناء أجازة الصيف التى أقضيها بعيدا عن مصر . وجعلت أحاسب نفسى حين أكتب لا مخافة السجن أو المعتقل ولكن مخافة الحذف والبتر والتغيير والتبديل والإساءة إلى الصحيفة التى تنشر ما أرسله اليها من فصول .

وقد وصلت إلى ايطاليا ووصلت إلى فرنسا بعد ذلك ولقيت الناس فى روما وباريس وفى غير روما وباريس وأقسم ما أحسست الخجل قط كما أحسسته فى هذه الرحلة قبل أن تحدث الأحداث الأخيرة فقد كان الناس يتحدثون إلى متحفظين يكرهون أن يؤذونى فى ذات وطنى يقولون لى قليلا ويضمرون فى أنفسهم كثيرا وأحس منهم ذلك فاستحى وامعن فى الحياة حتى يضطرب قلبى ويضطرب لسانى قبل أن يتكلم وحتى أجد لذعا ممضا كأنما كنت أجلس معهم على جمر الغضى . كانوا يعرفون من سيئات الحكم فى مصر مثل ما كنت أعرف ، كانوا يعرفون أن مصر قد فقدت حريتها وأن أبنائها يعيشون فى ظل الخوف والهلع وأن حاكمها العسكرى يستطيع أن يسوم أبنائها ما يشاء من الخسف دون أن يخشى بأسا أو لوما أو رقيبا وأن أحكام القضاء فيها تصدر فلا تنفذ ولا يحفل بها السلطان وأن الحاكم العسكرى قد حاول أن يحجر على القضاء ويمنعه من النظر فى بعض المظالم إن رفعت إليه . كانوا يعلمون هذا كله ويتجنبون التحدث إلى فيه إلا بالإشارة والتلميح . وكنت أتحفظ فى إجابتى كما كانوا يتحفظون فى أحاديثهم ، كانوا يستحون منى رفقا بى ، وكنت استحى منهم استخذاء مما صارت اليه الأمور فى وطننا .

أما قراءة الصحف فكانت عذابا أى عذاب وما أكثر ما كانت الصحف تقول عن مصر وما أكثر ما كانت تعيبها بالحق قليلا وبالباطل كثيرا حتى نغصت على الحياة فى أوروبا كما كانت منغصة فى

مصر . ولم أشعر بشى ء من الراحة المرة إلا حين أويت إلى هذه القرية البعيدة التى لا أعرف فيها أحدا ولا يعرفنى فيها أحد والتى لا أكاد أتحدث فيها إلا إلى الأهل والرفاق. فى هذه القرية كظمت غيظى وجعلت أجيله بينى وبين نفسى مصبحا وممسيا . أقرأ قليلا فى الصحف وأقرأ كثيرا فى الكتب أفر إلى القدماء من المحدثين واحتمى بالتاريخ من حياتنا الحاضرة .

ثم تصل إلى الأنباء بأن الأمور قد أخذت تتغير فى مصر فأتردد بين الشك واليقين فما أكثر ما تغيرت الأمور فى مصر منذ أول هذ العام دون أن يؤدى هذا إلى خير .

تتابع الأنباء وإذا ظلمة الشك تنجلى وإذا نور اليقين يغمرنى من جميع أقطارى وإذا أنا أحس أن كرامة مصر قد ردت إليها وأن غمرة الطغيان قد انجلت عنها وأنها قد أخذت تستأنف طريقها فى ضوء مشرق من الثقة والأمل لا تخشى أن يمكر بها الماكرون أو يكيد لها الكائدون لأن الجيش قد أمنها على حياتها الداخلية ومن ذا يستطيع أن ينكر أن الجيش إذا كان من الحق عليه أن يؤمن الوطن من العدو الخارجى فإن من الحق عليه كذلك أن يؤمنها من العدو الداخلى ذلك أن فساد الأمر فى داخل الحدود يعرض الجيش نفسه لخطر أى خطر وقد ذاق الجيش مرارة هذا فصابر وصابر حتى أصبح الصبر جبنا وإقامة على الذل . هنالك أقبل الجيش فقال للمواطنين لا بأس عليكم ما دمت معكم أحميكم ممن يريد بكم السوء سواء جاء منه خارج الحدود أو من داخلها .

بارك الله للجيش فيما فعل ، وبارك الله للجيش فيما يفعل، ، وبارك لمصر فى الجيش ووقى مصر كيد الكائدين ومكر الماكرين وخيانة الخائنين ، ووقاها مشيري السوء الذين يفكرون في أنفسهم قبل أن يفكروا فى الوطن والذين يتخذون الوطن وسيلة إلى إرضاء شهواتهم وشفاء ما فى نفوسهم من غل وجشع وحقد.

لقد ثابت مصر إلي نفسها فى هذه الأيام الأخيرة فعسى، ألا تفقد مصر نفسها مرة ثانية ، إن الآمال أمامها لواسعة وإن الطريق لواضحة وإن وسائل الإصلاح فيها لمكفولة فهل هى سالكة طريقها الواضحة المستقيمة إلى آمالها الواسعة الكريمة وهل هى آخذة أمورها كلها بالحزم والجد والعدل

والإنصاف لتحقق فى مستقبل أيامها القريبة مجدا يلائم أيامها البعيدة .

بهذا كله تتحدث نفوسنا وتخفق قلوبنا فاللهم اسمع واللهم استجب .

طه حسين

الأهرام ، ١٩٥٢\٨\١٢